الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

بلاء الناس بالناس — ملك الشط والفراتين — زيارة سياسية

بلاء الناس بالناس

تمرّ بنا لحظات كدر وغيظ لا يخلقها غير بلاء الناس بالناس ... نعم ، تمرّ بنا لحظات نحسد فيها سكان المغاور والكهوف ، ونتمنى عيش العزلة إلى آخر الزمان

هذه الحرب صنعت ما صنعت بالأرزاق والأقوات ، ولم تترك بيتاً بلا متاعب معاشية ، فهل تأدب الناس وتذكروا أنهم يعيشون فى أعوام حرب ؟ وهل تقع العيون على ناس تشهد ملابسهم بأنهم يعانون أزمات الحرب ؟

قيل إن المال كثر وفاض ، فعند مَن كثر المال وفاض ؟

لم يكثر إلا عند التجار . وكثرةُ المال عند التجار مفسدة معاشية لا يدرك خطرها إلا الأقلون ، وهى ناشئة عن بلاء الناس بالناس ... ولكن كيف ؟

الموظف المحدود الراتب ، والمالك المحدود الإيراد ، لا يريد هذا أو ذاك أن يقال إن حياته تعرضت لمتاعب الغلاء ، فهو كما كان يعيش فى أيام الرخاء ، وإن كلفه ذلك غمّ القلب وهموم الديون

ما هذه الملابس الجديدة فى زمن ليس فيه جديد غير دماء القتال ؟ وما هذه العطور والمساحيق والأزياء فى أيام لا يتعطر فيها الجو بغير جثث المحاربين ؟

لو راعى الناس أنهم يعيشون فى زمن حرب لخففوا من بعض المطالب لاعتدلت أسعار الحاجيات وانقشع كرب الغلاء ، ولكنهم لجهلهم يأبون الاعتراف بمكاره الحرب ، ويصرّون على الظهور بمظهر الوجاهة فى كل مجتمع وفى كل ناد

هل عندك أبناء وبنات يتعلمون فى المدارس ؟

لك الله ، إن كان هذا حالك ، فلن تستطيع أن تقنع ابنك أو بنتك بأن الدنيا فى حرب وكرب ، لأن هذا الإقناع لن يتيسر إلا إذا عُقد مؤتمر من آباء التلاميذ يقررون فيه الاستغناء عن الفضول فى الملابس والأزياء ، ولن يُعقد المؤتمر المنشود إلا إذا وُجد فى آباء التلاميذ من يجرؤ على القول بأن أعوام الحرب صيرته خفيف الجيب !

وآه ثم آه من بلاء الناس بالناس !

قَدِم مندوب المتجر الفلانى إلى المدرسة الفلانية وأخذ مَقاس جميع التلميذات بدون استثناء ليعدّ لهن أثواب الصيف ، وهو موقن بأن لن يكون فى مقدور تلميذة أن ترفض ثوبها « يوم الحساب » لئلا يقال إن أباها من الفقراء !

فما شأن المتجر الفلانى بالمدرسة الفلانية ؟

وما الذى يوجب أن تكون ملابس جميع التلميذات كأسنان المُشط فى اللون والاستواء . وقد نوّع الله الوجوه والملامح أغرب التنويع ؟

أفى مثل هذه الأيام نعرف الفروق بين ملابس الصيف وملابس الشتاء ؟

كان الظن أن يعرف نظار وناظرات بعض المدارس أن فى الآباء من لم يستفد من فرص الحرب ، كما استفاد من سيكونون طعام سَقَر من التجار المنهومين

وكان الظن بالأغنياء الذين يدللون أبناءهم أن يتذكروا أن لأبنائهم رفاقاً لا يملكون من الترف ما يملكون ، وأن الأدب مع الله يفرض علينا أن نستر نِعم الله ، فلا نجأر فى كل لحظة بأننا أغنياء ، لنكدر عيش الفقراء

وآه ثم آه من بلاء الناس بالناس !

الظواهر لا تشغل الخلائق إلا حين يُحرَمون جمالَ المعانى

والمفاضلة بين تلميذ وتلميذ فى هذا العصر مفاضلةٌ بين ثوب وثوب ، وليست مفاضلة بين عقل وعقل ، ولهذا كثرت خيبة التلاميذ النجباء !

ما لى ولهذا الكلام المزعج ؟

هو كلامٌ ساقه جزعى من العجز عن ادخار درهم واحد فى مدى شهرين ، بسبب الجو الذى يحيط بى وبأبنائى ، جوّ الزخرف الذى يحيا فيه الأصحاب والجيران

كنت أوصى تلاميذى فى مصر وفى العراق بالادخار ، وكنت أقول لهم إن الادخار هو الذى منحنى الفرصة لإتمام دراستى العالية فى باريس ، بعد توفيق الله . واليوم يصعُب علىّ أن أوصى أبنائى بما كنت أوصى به تلاميذى . وكيف يسمع أبنائى ما أقول ومن حولهم خلائق عجز عن تأديبها الزمان ؟

إن عدْوَى الترف سريعة الإيذاء ، فلنحترس من شرها كل الاحتراس

وكيف نحترس وليس فى الدنيا طفلٌ يعرف أن أباه لا يبخل عليه بالترف إلا ليدّخر له ما ينفع فى الأيام المقبلات ؟

إن أبناءنا لا يريدون أن نطمئن على سلامتهم من الوجهة الروحية ، وإلا فكيف جاز أن تكثر رغبتهم فى الزخارف وتقل رغبتهم فى الحقائق ؟

عفا الله عنهم ، فهم ضحايا بلاء الناس بالناس !

إن حال الرجال من هذه الناحية مقبول ، فما أذكر أنى رأيت مدرساً أو مفتشاً يهتم بملابسه اهتماماً يوجب الاعتراض ، وإنما الحال المزعج هو حال بعض المدرسات والمفتشات ، حال الفساتين التى لا تجاوز الركبتين ، حال الزينة التى تنافى وقار التعليم ، وكان مهنة الأنبياء

وفى إحدى المدارس رأيت مدرّسة ضنت على نفسها بالزينة الزخرفية ، فزاد إيمانى بعظمة بلادى ، وأيقنت أن « ربة البيت » بخير وعافية ، وأن مصر فى أمان من طغيان الخسران

عندنا مدرّسات حقًّا وصدقًا ، مدرّسات يتحلين بالعلم لا بالزينة ، وبفضل أمثال هؤلاء المدرسات سنبلغ من تعليم البنات ما نريد

المدرسات المصريات فى هذا العهد يجاهدن بصدق للتغلب على السخف الذى جلبه الجانب الضعيف من المدنية الغربية ، ويحاولن بصدق أن يكن مدرسات لا وصيفات

وقد صار من المألوف أن تجد مدرسات يقهرنك قهراً على بذل تحية التعظيم والتبجيل ، وهى تحية أكرم وأشرف من تحية الحسن المجلوب

وأرجو أن يفهم القارئ أن كلامى هذا لا يراد به الإيحاء ، فما هو إلا صدق فى صدق ، بعد ملاحظات ومشاهدات جعلتنى من المطمئنين إلى صحة ما أقول

وأنا مع هذا منزعج مما صرنا إليه فى مدارس البنات ومدارس البنين

هل عندنا مدرسة توصى تلاميذها بأن لا يكلفوا آباءهم ما لا يطاق ؟

هل عندنا مدرسة تفكر فى أن تكون من الأسندة للبيوت ؟

التلميذ لا ينجح بتفوّق إلا إذا أمدّته المقادير بالدروس الخصوصية ، فمتى نثق بكفاية الدروس المدرسية ؟

وما قيمة المدرس الذى لا يتفتح عقل تلميذه إلا إن خاطبه لسان إلى لسان : بين أربعة جدران ؟

أعوذ بالله من بلاء الناس بالناس !

ملك الشط والفراتين فى ضيافة النيل

من مزايا مجلة « الرسالة » أنها تسكت عن الأشخاص ليكون إلتفاتها كله إلى المعانى ، وذلك هو السر فى عدم اهتمامها بالأخباريات المتصلة بالأشخاص

قلت لنفسى : ولكن فى الأشخاص من يكونون رموزاً للمعانى ، فما الذى يمنع من أن أقول على صفحات الرسالة : أهلاً وسهلاً ومرحباً بملك الشط والفراتين !

كانوا يسمونه الملك الطفل ، فسميته الملك الشبل ، جعله الله أكرم الأشبال !

و « ملك الشط والفراتين » لقبٌ جميل صاغه شاعرنا شوقي فى القصيد الذى يغنيه محمد عبد الوهاب فى تحية فيصل الأول . والشط هو شط العرب ، والفراتان : دجلة والفرات ... ولو كانت الأقدار سمحت بأن يزور شوقي ديار « الشط والفراتين » لجاد شعره بأطايب لا يجود بمثلها الخيال

وهل كان شوقى يشعر بقيمة المبدأ الذى رسمه حين جعل ملك العراق ملك الشط والفراتين ؟

ما أغرب ما سمعت فى بغداد سنة ١٩٣٨ !

سمعت أن العراقيين دعوا « الملك فيصل الأول » إلى الاحتفاظ بالموصل فى المؤتمر الذى عقدوه فى « الصُّليخ » ، فما الصليخ ؟ هو مكان فى ضواحى بغداد مرت به لحظة تاريخية . وقد زرته زيارة الطيف فى ليلة شاتية لأتنسم الجو الذى قيل فيه بحضرة فيصل الأول : إن العراق لا يستغنى عن الموصل بأى حال

ثم زرت الموصل الذى لا يجوز عنه الاستغناء فهالنى أن أرى روحانيات مختلفات ، وعز على أن يكون الموصل مما يدخل فى الحساب عند تقسيم المغانى ، مع أنه كان ولا يزال ولن يزال من صميم الأرومة العربية

وقد زرت الشط ، شط العرب ، بعد أن شهدت العراق الذى دار فى مجلس النواب العراقى حول معاهدة الحدود .

وأصغيت بأذنى وبقلبى إلى الصوت الذى قال : من غفلة العرب أن ينسوا الأهواز ، مع أنها أحق بالعطف من فلسطين

لقد نفضتُ يدىّ من السياسة بعـد أن آذتني فى وطنى . فكيف جاز أن ألتفت إلى السياسة يوم كنت ضيف العراق ؟

هى سياسة روحية تشبه السياسة التى تساور قلبى حين أزور دمياط وأرى المصرع الذى انتهى إليه « جامع الفتح » وهو المسجد الثانى فى مصر بعد مسجد عمرو بن العاص

دعوت سادن جامع الفتح مرة ومرات فما أجاب ؟ وأين السادن لمسجد لا تهتم به لجنة الآثار العربية ولا وزارة الأوقاف ؟

ليتنى سليت ركعتين على باب ذلك المسجد ، وليتنى تيممت بما على جدرانه من تراب !

لقد زرت فى دمياط مشاهد يجهلها الدكتور على مصطفى مشرفة ويجهلها الأستاذ عبده حسن الزيات ، زرت البلد الذى تحدثت عنه فى كتاب « التصوف الإسلامى » قبل أن أراه ، لأرفع عن عقلى بعض ما يثقله من أوزار الجهل !

وأين من يعرف حقيقة ما أرويه فى هذا الحديث ؟

دمياط صورة من البصرة والبصرة صورة من دمياط

الطريق إلى هاتين المدينتين محفوف بالنخيل، وكلتاهما ملتقى للماء العذب والماء الأجاج ، مع فروق أوجبها بُعد البصرة من دمياط ، وكلا البلدين ثغرٌ مخوف ، فما يعيش العراق بدون أمان البصرة ، ولا تعيش مصر بدون أمان دمياط

هذه السياسة الروحية تزلزل روحى ، فلى فى كل بلد آلام وآمال ، وأنا أجول جولات روحية بكل ما أحب من البلاد فى كل مساء ، وكأننى أجول فى شارع فؤاد . وهل يوجد فى أية مدينة شارع له جاذبية شارع فؤاد ؟

بالرغم منى أن يكون حظى من المرور بذلك الشارع شبيهاً بمرور الطيف على ديار الأحباب

شارع فؤاد هو طريق إلى الفوضية العراقية ، فهل سمح الوقت بأن أزور نخامة السيد جميل المدفعى وكان رئيس الوزراء حين كنت من الذين يتشرفون بخدمة العلم والأدب في العراق ؟

المصرى الصادق فى خدمة وطنه لا يجد وقتاً لأداء حقوق المجاملات ، لأن الشواغل عندنا تفوق الوصف ، ولأن فى حياتنا متاعب لا يعانى مثلها أحد فى سائر البلاد العربية

إذا وفد إلى مصر زائرٌ كريم تلفت عساه يرى من يحفون لتحيته من المصريين ، ثم تكون النتيجة أن لا يرى غير آحاد من الذين تسمح أوقاتهم بتحية الضيوف ، فينصرف وهو متعجب من تهاون المصريين فى المجاملات الإخوانية

أقول هذا لأعتذر لفخامة السيد جميـل المدفعى ، راجياً أن أراه فى فرصة قريبة بالقاهرة أو بغداد .

زيارة سياسية !

ضاق الوقت عن التشرف بمقابلة صاحب الجلالة فيصل الثانى ، وكنت أحب أن أعرف للبواعث لزيارته الكريمة ، فقد سمعت ناساً يقولون إنها زيارة سياسية !

نعيش إن شاء الله ويعيش فيصـل الثانى إلى أن يتولى السلطة الدستورية وتُصبَغ كل أسفاره بالصبغة السياسية .

أما زيارة اليوم فهى زيارة ملك ناشئ لا يرى غير الورود والرياحين

وأنا مع هذا موقن بأن زيارته لمصر زيارة سياسية ، فقد أبدع بروحه اللطيف جاذبية أخوية تزيد ما بين مصر والعراق من صلات

السياسة ليست مقصورة على النظر فى المنافع العاجلة أو الآجلة فى حيوات الشعوب ، فهناك سياسة أعظم وأرفع ، وهى سياسة الحب والوداد . والملك فيصل الثانى يسمع من أخبار مصر ما يسمع، ويقرأ من مؤلفات رجالها ما يقرأ ، فكان من الواجب أن يراها بعينيه ليحس روحها بأوفى وأصدق ما يكون الإحساس

انتظروا قليلاً ، فسترون يوماً أن هذا الملك الناشئ دوّن فى مذكراته البسيطة أشياء ، فمن المؤكد أن صدره فاض بالجذل والارتياح والاغتباط حين رأى أن لغة العرب لهـا مدينة مثل القاهرة ، ومن المؤكد أنه اطمأن على مصير العروبة حين رأى أن اشتباك المصالح الدولية لم يزحزح القاهرة عن خطتها العربية

وهنا أقول إنه يجب على كل عربى أن يزور القاهرة وأن يرى ما فيها من المدارس والمعاهد والكليات

عاصمة مصر هي العاصمة الأولى فى الشرق ، وهى فى الحضارة والمدنية أعظم من استانبول ، وهى أبقى على الزمن من أخطر حواضر اليابان ، فقد نجانا الله من أهوال الزلازل والبراكين ، وأنعم على بلادنا بوفاء النيل ، وأعاننا على كبح ما فُطر عليه من الطغيان

ومصر التى هدت الإنسانية إلى حقائق لم يعرفها الغرب إلا بعد أجيال وأجيال ستظل على الدهر وطن الابتكار والابتداع فى أكثر الميادين . وهل نطق ناطق بحقيقة علمية أو أدبية أو فلسفية إلا وهو مَدين لآبائنا الأولين ؟

عنا أُخِذ الكفر وعنا أُخذ الإيمان ، فما كفر كافر ولا آمن مؤمن بدون أن يكون لنا فى عقله وقلبه ديون ثقال